تربيـــة لؤلؤية

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

كتبتْ إلىّ سيدة فاضلة بما هذه ترجمتُه منقولاً إلى أسلوبى وطريقتى :

. . . أما بعد فهذا الذى كنا ظننّا وظنّتْ ، فاقرأ الفصل الذى انتزعته لك من مجلة . . . وستعرف منه وتنكر ، وترى فيه النهار مبصراً والليل أعمى . . . وتجد فتاةَ اليوم على ماوقع بها من الظِنّة ، وكثر فيها من أقوال السوء — لا تَشْمس على الريبة ولا تريد أن تنتفى منها ، بل هى تعمل لتحقيقها ، وتبغى مع تحقيقها أن يَتَسالمَ الناسُ ذلك منها ، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ماشاءت ، ويسوّغوها مقارفة الاثم ، ويُقِرّوها على منكراتها .

أما إنه لئن كانت أمهاتنا الجاهلات هنّ أمسنا الذاهب بلا فائدة ، فان فتياتنا المتعلمات هن يومنا الضائع بلا فائدة ، غير أن الجاهلة لم تكن تكسُد ومعها الفضيلة ، فأصبحت المتعلمة لم تكد تَنفُق ومعها الرذيلة ، ولَتاجرٌ أمىّ طاهر الاسم تتحرك سوقُه وتحيا ، خير من تاجر متعلم نجس الاسم قد ماتت سوقه وخمدت ، فما تتنفّس من درهم ولا دينار .

لقد احتذينا على مثال المرأة الأوربية ، فلما أحكمَتْه المتعلمات منا كن بين الشرق والغرب كالسَّبِخة النشّاشة من الأرض ، طرَف لها بالفلاة وطرف بالبحر ؛ فهى رمل فى ماء فى ملح ، لا تخلُص لفساد ولا صحة ، فاعتبر هذه وهذه فستجدها بحكاية واحدة ، أصلاً وطبق الأصل . . ؟

* * *

وقرأتُ الفصل الذى أومأت اليه السيدة وكانت فى كتابها فاذا هو لكاتبة تزعم (أنها ممن رفعن علم الجهاد لحرية المرأة) واذا فى أوله :

« كتبت آنسة أديبة فى عدد سابق من . . . الأغر تقول : « أجل ، لنفتشْ عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة ، فان أخطأناهم أزواجا فلن نخطئهم أصدقاء . . . » وكتب بعد هذا أديب فاضل ، كما كتبت آنسة فاضلة ينحيان (كذا) هذا المنحى ويطرقان نفس السبيل (كذا) التى اختطتها الآنسة الجريئة فى غير حق ، الثائرة فى نزق ، ثم قالت بعد ذلك : « قرأت مقال الآنسة الثائرة فى حيوية متأججة . . . . فجزعت لأن قاسم أمين عندما رفع علم الجهاد من أجل حرية المرأة ، وولى الدين يكن عندما جاهر بعده فى سبيل السفور ، وهدى شعراوى عندما رفعت صوتها عالياً تطالب بحرية المرأة — ماظنت وماظن واحد من هذين الرجلين أن ثورة المرأة ستتطور الى حد أن تقف آنسة مهذبة تكشف عن رأسها تبكى وتستبكى سواها معها من أجل الزواج . . . »

* * *

وأنا فلست أدرى والله مِمَّ تعجب هذه الكاتبة وإنى لأعجب من عجبها وأراها كالتى تكتب عبثاً وهزلا ولهوًا بينَ مُظهِرةَ الجدّ والقصد والغضب . أَئِنْ أُطلِق للنساء أن يَثُرن كما تقول الكاتبة ، وجاهد فلان وفلان فى هذه الثورة فأخذت مأخذها ، فانطلقت لشأنها ، فأوغلت فى حريتها ، فامتدّ بها أمدها شوطاً بعد شوط — ثم جاء خُلُقٌ من أخلاق المرأة يسفر سفوره ويرفع الحجاب عن طبيعته ثائراً هو أيضاً فى غير مداراة ولا حذق ولا كياسة يريد أن يقتحم طريقه ويسلك سبيله ؛ ثم وقف على رغمه فى الطريق منكسراً مما به من اللهفة والوثبة يتوجع ، يتنهد ، يتلدّع بهذه المعانى وهذه الكلمات — أَئِنْ وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة : جرى عليكِ وكنتِ حرة ، وتزعزعتِ وكنتِ ثابتة ، وأفحشتِ وكنتِ عفيفة ، وتعهّرتِ وكنتِ طاهرة . أفلا تقول لها : سَفَرتْ أخلاقُكِ إذ كنتِ سافرة بارزة ، وضاع حياؤكِ إذ كنت مُخلاّة مهملة ، وغلوتِ إذ كنت فى المبالغة من البدء . أفلا تقول لها : لقد تلطّفتِ جِئتِ بالمعنى المجازىّ لكلمة (العُرى) ولقد أبدعتِ فكنتِ امرأة ظريفة اجتماعية مخيلة للشعر والفن ، وحققتِ أن واجب الطريفة الجميلة إعطاءُ الفن غذاءً مِنْ ، ومن ، ومن لحمها . . . . . .

نعم إن قاسم أمين — رحمه الله — لم يكن يظن . . ولكن أما كان ينبغى أن يظن أن بعض الصواب فى الخطأ لا يجعل الخطأ صواباً ؟ بل هو أحرى أن يُلبّسه على الناس فيُشبّهه عليهم بالحق وما هو به ، ويجعلهم يسكنون اليه ويأمنون جانبه فينتهى بهم يوماً الى أن يَنتسِفَ خطؤه صوابَه ، ويطغىَ باطلُه على حقه ، ثم تستطرق اليه عواملُ لم تكن فيه من قبل ، ولا كانت تجد اليه السبيل وهو خطأ محض ، فتمدّ له فى الغى مداً . ثم تنتهى هى أيضاً الى نهايتها ، وتؤول الى حقائقها ؛ فاذا كل ذلك قد

داخل بعضه بعضاً ، واذا الشر لا يقف عندما كان عليه ، واذا البلاء ليس فى نوع واحد بل أنواع .

ما يرتاب أحد فى نية قاسم أمين ، ولا نزعم أن له حفيّة سوء أو مُضمَر شر فيما دعا اليه من تلك الدعوة ، ولكني أنا أرتاب فى كفايته لما كان أخذ نفسه به ، وأراه قد تكلّف مالا يُحسن ، وذهب يقول فى تأويل القرآن وهو لا ينفذ الى حقائقه ولا يستبطن أسرار عربيّته ، وكان مناظروه فى عصره قوماً ضعفاء فاستملاهم بضعفهم لا بقوته ، وكانت كلمة الحجاب قد انتفخت فى ذهنه بعد أن أفرغت معانيها الدقيقة ، فأخذها ممتلئة وجاء بها فارغة ، وقال للنساء غيّرن وبدّلن ؛ فلما أطعنه وبدّلن وغيّرن ، وجاء الزمن بما يفسّر الكلمة من حقائقه وتجاريبه لا من خيالات التخيّل أو التشيّع — إذاً معنى التغيير والتبديل هو ما رأيتَ ، واذا الحجاب الأول على ضلاله كان نصف الشر ، واذا المرأة التى ربحت الشارع هى التى خسرت الزوج ! واذا تلك الدعوة لم تكن نفياً للحجاب عن المرأة ، ولكن نفياً للمرأة ذاتها وراء حدود الأسرة كأنها مجرمة عوقبت على فساد سياستها ؛ وهى فى بيتها ، ولكنها مع ذلك منفية من مستقبلها .

كانوا يحتجون لنفى الحجاب بالفلاحات فى سفورهن ؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السبب الطبيعى فى ذلك ، وهو أن السفور إنما عمّهنّ من كونهن لسن فى المنزلة الاجتماعية أكثر من بهائم إنسانية مؤنثة . ومثل هذا السفور لا يكون على طبيعته تلك إلا فى اجتماع طبيعى فطرى أساسه الخلط فى الأعمال لا التمييز بينها ، والاشتراك فى شىء واحد ، هو كسب القوت لا الانفراد بما فوق ذلك من أشياء النفس .

ولست أرى هذه اللجاجة ، أو « الحيوية الصارخة » التى ثارت بفتياتنا — إلا تمرداً من طبيعتهن على الأحوال الظالمة المتصرفة بها ؛ ويحسبْنه توسعاً من الطبيعة فى الحرية ، وطلباً للعالم كله بعد الشارع ، وللحقوق كلها بعد نبذ الحجاب ؛ وهو فى الحقيقة ليس إلا ثورة الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالم والحقوق ، ورغبة منها فى أن تُحدّ بحدودها ويُؤخذ منها العالم كله بما فيه ، وتُعطَى البيت وحده بما فيه .

إذا أنت كشفت جذور الشجرة لتطلقها بزعمك من حجابها وتخرجها الى النور والحرية فانما أعطيتها النور ، ولكن معه الضعف ؛ والحرية ، ومعها الانتقاض ؛ وتكون قد أخرجتها من حجابها ومن طبيعتها معاً ؛ فخذها بعد ذلك خشباً لا ثمراً ، ومنظرَ شجرة لا شجرة ! لقد أعطيتها من عندك لا من حياتها ، وجهلت أنها من أطباق الثرى فى قانون حياتها ، لا فى قانون حجابها . أفليست كذلك جذور الشجرة الانسانية ؟

كل ما يتغير يسهل تغييره على من شاء ، ولكنّ النتائج الآتية من التغيير لا تكون إلا حتماً مقضياً كما يُقضَى فلن يسهل تبديلها ، ولا تحويلها ولا ردّها أن تقع . وقد أخطأ جماعة السفور ، بل أنا أقول : إنهم جاءونا بالجاهلية الثانية ، وإنهم طبّبوا للمرأة المسلمة كذلك الطبّ الذى أساسه الرائحة الذكية فى البخور ... !

* * *

وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة ، وإغلاءُ سعرها فى الاجتماع ، وصونُها من التبذّل المقوت لضبطها فى حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم ؛ قانون العرض والطلب والارتفاع بها أن تكون سلعة بائرة ينادَى عليها فى مدارج الطرق والأسواق : العيون الكحيلة ، الخدود الوردية ، الشفاه الياقوتية ، الثغور اللؤلؤية ، الأعطاف المرتجّة ، النهود الـ .. الـ .. أو ليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب الى هذه الغاية ، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هـــذا فانهن لا يظهرن فى الطرق إلا لتنادى أجسامُهن بمثل هذا ؟ وهذه التى كتبت اليوم تطلبهم مخادنين إن أخطأتهم أزواجا ، وتفتّش عليهم تفتيشاً بين الزوجات والأمهات والأخوات ! هل تريد إلا أن تثب درجة أخرى فى مخزيات هذا التطور ، فتمشى فى الطريق مشى الأنثى من البهائم طَموحاً مطروقة ، تذهب عيناها هنا وهنا تلتمس من يخطو اليها الخطوة القابلة . . .

ما هو الحجاب الشرعىّ إلا أن يكون تربيةً عملية على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصّها الرحمة ؛ هذه الصفة النادرة التى يقوم الاجتماع الانسانى على نزعها والمنازعة فيها مادامت سنة الحياة نزاعَ البقاء ، فيكون البيت اجتماعاً خاصاً مسالماً للفرد تحفظ المرأة به منزلتها ، وتؤدى فيه عملها ، وتكون مغرساً للانسانية وغارسة لصفاتها معاً .

لقد رأينا مواليد الحيوان تولد كلها : إما ساعية كاسبة لوقتها ، وإما محتاجة الى الحضانة وقتاً قليلاً لا يلبث أن ينقضى فتكدح لعيشها ؛ إذ كانت غاية الحيوان هى الوجود فى ذاته لا فى نوعه ، وكان بذلك فى الأسفل لا فى الأعلى . غير أن طفل المرأة يكون فى

بطنها جنيناً تسعة أشهر ، ثم يولد ليكون معها جنيناً في صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعاف ذلك سنة بكل شهر . فهل الحجاب إلا قصر هذه المرأة على عملها لتجويده وإتقانه وإخراجه كاملاً ما استطاعت ؛ وهل قصرها في حجابها إلا تربية طبيعية لرحمتها وصبرها ، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها ؟

أعرف معلمة ذات ولد ، تترك ابنها في أيدي الخدم بعد وصاة علمية سيكولوجية .. وتمضي ذاهبة عن يمين الصباح ويمضي زوجها عن شماله .. وقد رأيت هذا الطفل مرة فرأيته شيئاً جديداً غير الأطفال ، له سمة روحانية غير سماتهم ، كأنما يقول لي إنه ليس لي أب وأم ، ولكن أب رقم (١) ، وأب رقم (٢) ..

* * *

وقد كنت كتبت كلمة عن الحجاب الاسلامي قلت فيها : « ما كان الحجاب مضروباً على المرأة نفسها ، بل على حدود من الأخلاق أن تجاوز مقدارها أو يخالطها السوء أو يتدسس إليها ؛ فكل ما أدى إلى هذه الغاية فهو حجاب ، وليس يؤدي شيء إلا أن تكون المرأة امرأة في دائرة بيتها ، ثم إنساناً فقط فيما وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعاني . »

وهذا هو الرأي الذي لم يتنبه إليه أحد ، فليس الحجاب إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه وروحه الدينية المتعبدة وهو كالصدفة لاتحجب اللؤلؤة ولكن تربيها في الحجاب تربية لؤلؤية ؛ فوراء الحجاب الشرعي الصحيح معاني التوازن والاستقرار والهدوء والاضطراد وأخلاق هذه المعاني وروحها الديني القوي الذي ينشيء عجيبة الأخلاق الانسانية كلها ؛ أي صبر المرأة وإيثارها . وعلى هذين تقوم قوة المدافعة ، وهذه القوة هي تمام الأخلاق الأدبية كلها ، وهي سر المرأة الكاملة ؛ فلن تجد الأخلاق على أتمها وأحسنها وأقواها إلا في المرأة ذات الدين والصبر والمدافعة . إنها فيها تشبه أخلاق نبي من الأنبياء .

وقد محق الدين والصبر ، وتراخت قوة المدافعة في أكثر الفتيات المتعلمات ، فابتلين من ذلك بالضجر والملل ، وتشويه النفس ؛ ووقع فيهن معنى كمعنى العفن في الثمرة الناضجة ؛ وجهلن بالعلم حتى طبيعتهن فما منهن من عرفت أن طبيعتها سلبية في ذاتها ، وأنه لايشدها ويقيمها إلا الصفات السلبية ، وملاكها الصبر فروعه وأصوله ، وجمالها الحياء والعفة ، ورمزها وحارسها والمعين عليها هو الحجاب وحده . إنه إن لم يكن في المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا .

وما تخطيء المرأة في شيء خطأها في محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية ، وانتحالها صفات الأيجاب ، وتمردها على صفات السلب كما يقع لعهدنا ، فان هذا لن يتم للمرأة ؛ ولن يكون منه إلا أن تعتبر هذه المرأة نقائض أخلاقها من أخلاقها كما نرى في أوربا ، وفي الشرق من أثر أوربا . فمن هذا تلق الفتاة حياءها وتبذؤ وتفحش ، إن لم يكن بالألفاظ والمعاني جميعاً فبالمعاني وحدها ، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر في هذه وتلك ؛ وكانت الأستجابة لهذا ما فشا من الروايات الساقطة والمجلات العارية ؛ فان هذه وهذه ليست شيئاً إلا أن تكون علم الفكر الساقط .

وعادت الفتاة من ذلك لاتبتغي إلا أن تكون امرأة رواية ؛ إما فوق الحياة ، وإما في حقائق جميلة تختارها اختياراً وتفرضها فرضاً على القدر ؛ وتنسى الحمقاء أنها أحد الطرفين ، وليست الطرفين جميعاً ، فتحاول أن تقرر للحياة الجديدة تأويلاً جديداً لمعاني الشرف والكرامة والعرض والنسب وما إليها ؛ فانسلخت من كل شيء ، ثم لما أعجزها أن تنسلخ من غريزة الأنوثة طاشت طيشها الأخير فانسلخت من إنسانية الغريزة

* * *

أما إن غلطة الرجل في المرأة لاتكون إلا من غلطة المرأة في نفسها ، وهي قد أعطيت في طبيعتها كل معاني حجابها ؛ فأحلامها محتجبة تختبيء أبداً كأنه في إتب (١) وملاءة وبرقع وأفكارها طويلة اللازمة لها لاتكاد تتركها كأنها منها في بيت ، وطبيعة الحذر لاتبرحها كأنها الحارث الثابت في موضعه القائم بسلاحه على حفظ هذا الجنس الجميل ؛ وطول التأمل موكل بها كأن عمله مصاحبتها وخدمتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها ؛ والدنيا حول المرأة بمذاهب أقدارها ، ولكن لها دنيا في داخلها هي قلبها تذهب الأقدار فيه مذاهب أخرى ؛ وضغطة الحياة طبيعية فيها حتى لايساورها هم من الهموم إلا صار كأنه من عادتها والتي تمزقها الحياة كلما ولدت لاتكون الحياة إلا رحيمة بها إذا ضغطتها .

فخروج المرأة من حجابها خروج من صفاتها ، فهو إضعاف لها ، وتضرية للرجال بها ، وماذا تجدي عادة الحذر إذا أفسدتها عادة الاسترسال والاندفاع ، فيكون حذراً ليكون إغفالاً ، ثم يكون إغفالاً ليمهد الزلة والغلطة ؛ ومتى رجع غلطة فهذا أول

(١) الاتب هو بردة تشق فتلبس من غير كمين ، وتسميه الريفيات (اللبس)

السقوط ومبدأ الانقلاب والتحوّل . وليس الفرق بين امرأة نفورٍ من الريبة ، شَمُوسٍ لا تطالع الرجال ولا تُطمعهم ؛ وبين امرأة تَزُورٍ على الريبة ، هلوكٍ فاجرة — إلا حجابَ الحذر أُسدِلَ على واحدة ، وانكشف عن أخرى .

وإذا قرّتْ المرأة في فضائلها فانما هي في حجابها ودينها ، وإنما ذلك الحجاب ضابط حريتها الصحيحة ، باعتبارها امرأةً غير الرجل ؛ فهو مسمّى بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبطه لها ، ولكن الضعفاء الذين يعرفون ظاهراً من الرأي لا يدركون مذهبه ، ولا يحققون ماينتهي اليه ، وينفذون في حكمهم على الظاهر لا على البصيرة — هؤلاء لا يعرفون معنى الحجاب إلا في القماش والكساء والأبنية ، كأن حجاب الأخلاق النسوية شيء يصنعه الحائك والباني والمستعبد ، ولا تصنعه الشريعة والأدب والحياة الاجتماعية ، فهم كما ترى حين يأتون بنصف العلم يأتون بنصف الجهل .

لم يخلق الله المرأة قوةَ عقل فتكونَ قوة إيجاب ، ولكنه أبدعها قوةَ عاطفة لتكون قوة سلب ؛ فهي بخصائصها والرجل بخصائصه ؛ والسلب بطبيعته متحجب صابر هادىء منتظر ، ولكنه بذلك قانون طبيعي تتم به الطبيعة .

وينبغي أن يكون العلم قوة لصفات المرأة لا ضعفاً ، وزيادة لا نقصاً ؛ فما يحتاج العالم إذا خرج صوتها في مشاكله أن يكون كصوت الرجل صيحةً في معركة ، بل تحتاج هذه المشاكل صوتاً رقيقاً مؤثراً محبوباً مجمعاً على طاعته كصوت الأم في بيتها .

***

أيتها الفتاة ، إن صدق الحياة تحت مظاهرها لا في مظاهرها التي تكذب أكثر مما تصدق ؛ فساعدي الطبيعة واحجبي أخلاقك عن الرجل ، لتعمل هذه الطبيعة فيه بقوتين دافعتين منها ومنكِ ، فيسرع انقلابه إليكِ وبحثه عنكِ ؛ وقد يجد الفاسق فاسقات وبغايا ، ولكن الرجل الصحيح الرجولة لن يجد غيركِ .

وإنما سفورك وسفور أخلاقك إفساد لتدبير الطبيعة ، وتمكين للرجل نفسه أن يُرْجِف بكِ الظن ويسيء فيكِ الرأي ، وعقابك على ذلك ماأنتِ فيه من الكساد والبوار ؛ عقاب الطبيعة لمستقبلك بالحرمان ، وعقاب أفكارك لنفسك بالألم . . ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعي

في الأفق الدولي

حديث الحرب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في الآونة الأخيرة كثر الحديث عن الحرب المقبلة ، وعن أسبابها المحتملة ، وعن مواطن نشوبها والدول التي قد تشترك فيها . وكلما اظلم أفق السياسة الأوربية ، وتفاقمت مشكلة من المشاكل ، تكرر حديث الحرب ، وازداد المتشائمون تمسكاً باعتقادهم في قرب نشوبها . ومنذ أشهر نشهد في جو السياسة الأوربية ما ينذر فعلاً باضطراب العلاقات الدولية وتوترها ؛ فمن محالفات سياسية وعسكرية تعقد بين مختلف الدول ، ومن اعتمادات مالية ضخمة تقررها معظم الدول لتعزيز قواتها واستكمال أهباتها الحربية ، ومن تصريحات سياسية هنا وهناك تحمل على التشاؤم والجزع . ولقد كشفت الأزمة النمسوية التي وقعت منذ أسابيع قلائل من جراء الثورة التي أضرمها دعاة التحريض الألماني لقلب النظام في النمسا والتمهيد لأعلان انضمامها الى ألمانيا عن مبلغ توتر أعصاب الدول العظمى ، وعما يجثم في ثنية المشكلة النمسوية من خطر على السلام الأوربي ؛ ولم تحجم أيطاليا في هذا الظرف الدقيق عن حشد جنودها على حدود النمسا الجنوبية استعداداً للطوارئ . فاذا ذكرنا أن الحرب الكبرى أضرمت شرارتها الأولى في تلك المهاد ، أي في امبراطورية النمسا والمجر القديمة ، استطعنا أن نقدر طرفاً من العوامل التي تلى بحديث الحرب ونبوءاتها .

على أننا مع تقديرنا لخطر هذه الظواهر المزعجة في سير الحوادث الأوربية ، نخشى أن يكون خطر الحرب جاثماً في جهة أخرى غير أوربا القديمة ؛ ففي الشرق الأقصى تقع حوادث ذات مغزى خطير ؛ وهذا التلاحم المستمر بين اليابان وروسيا يطوى من الخطر على السلام أكثر مما يدلى به ظاهر الحوادث . ولنلاحظ أولاً أن هناك خصومة تاريخية خالدة بين اليابان وروسيا منذ الحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٤ ؛ وأن بينهما منافسة قديمة مستمرة مدارها التنازع على النفوذ في الصين واقتسام المصالح الصينية ؛ وهما يلتقيان في الصين في مناطق ذات خطر كبير في منتهى الأهمية . وفي الأنباء الأخيرة أن حادثاً جديداً قد وقع في